Route Educational & Social Science Journal
Volume 6(3) ; February 2019
Artical History
Received/ Geliş 18.12.2018 | Accepted/ Kabul 13.2.2019 | Available Online/yayınlanma 15.2.2019

التكوين الثقافي لأحمد المنصور السعدي الذهبي

(986هـ-1012هـ/ 1578م-1604م)

ايمان عبدالرحمن حسن
استاذ مساعد
جامعة الموصل/ كلية الآداب

The Cultural Formation of Ahmad Al-Mansor(986 AH – 1012AH / 1578 AD – 1603 AD)

Assist. Prof. Dr. IMAN ABDULRAHMAN HASAN
College of ART – University of Mosul

الملخص

سعت الدولة السعدية منذ اعلان محمد بن عبدالرحمن البيعة لابنه الأمير أبو العباس أحمد المعروف بالأعرج سنة (923-946هـ) الى تحرير المغرب العربي فكان جهادهم نابع من الواجب الذي يفرضه الدين والوطن وبعد ان استقرت الأحوال في المغرب عاد الأمن الى نصابه واستطاع رجال العلم احياء ما اندثر من سالف المجد العلمي والتاريخي في عهد الدولة الوطاسية فبدأت حركة العلوم والآداب تستعيد نشاطها من جديد وكان لهذه الحركة سمات متميزة برزت في هذا العصر.

وقد تغيرت اوضاع المغرب العربي في هذا العصر تغيراً جذرياً في جميع الميادين السياسية والفكرية, واستبدلت حالة الضعف والانقسام والفقر التي طغت على ربوعه طول القرن التاسع الهجري الموافق, الخامس عشر

الميلادي الى حالة من القوة والتقدم بعد انتشار نفوذ السعديين ليستوي تماماً من النصف الثاني من القرن العاشر الهجري حيث بلغت الدولة اوجها لاسيما في الجانبين الفكري والثقافي وما النتاجات المتنوعة الكثيرة التي ظهرت إبان هذه الفترة الا دليل على نبوغ ابناء هذه البلاد ومدى تفوقهم الأدبي والفكري.

فعلى المستوى السياسي تعد معركة وادي المخازن (986هـ-1578م) من المعارك الفاصلة في تاريخ المغرب ونقطة حاسمة في تاريخ الاسلام ما بين اطماع الاجانب ونضال الثائرين, اذ انتصر فيها المغاربة على الاسبانيين والبرتغاليين معاً وعاد الأمن والاستقرار للبلاد, ولا سيما بعد تولي احمد المنصور الحكم بعد وفاة اخيه عبدالملك السعدي الذي قام بارساء قواعد الحكم الجديد في البلاد ليحقق الأمن والاستقرار بعد الفترة التي تعرضت فيها البلاد للاضطرابات واصبحت بعد ذلك مدينة مراكش عاصمة يقصدها السفراء من الدول الاسلامية والاجنبية على المستوى الثقافي والأدبي نجد ان عصر الحكم السعدي يعد من العصور المتألقة على الصعيد العلمي والفكري والأدبي.

الكلمات المفتاحية: احمد المنصور , وادي المخازن, الدولة السعدية , ادارة احمد المنصور.

Abstract

The State of Sa'adis seeks ,since Muhammad bin Abdul Rahman's announcement of allegiance to the daughter of Prince Abu Abbas Ahmed known as al-Araj (The Crippled) on (923- 946 A.H) , in liberating Maghreb countries, their fights which follow from the duty of religion and home, after the situations be calmed in Maghreb the security come to status and the scholars relief of what are shattered of descended scientific and historical glory in Wattasid dynasty the science and arts move return their activity again, this move had distinguished features come out in this era.

The situation of the Maghreb in this era has changed radically in all political and intellectual fields, and the situation of weakness, division and poverty that dominated it throughout the 9th century A.D , fifteenth A.D., has been replaced by a state of strength and progress after the spread of the Sa'adi power to the full on the second mid tenth century Hijri, where the state reached its peak, especially in the intellectual and cultural aspects, and the many diverse productions that emerged during this period are evidence of the people of this country and their moral and intellectual superiority.

At political level, the battle of Waadi Almakhazin (986 H-1078 m) is a the climax in the history of Maghreb countries and a crucial point in the history of Islam between the greed of foreigners and the struggle of the rebels, in which the Maghreb countries triumphed over the Spaniards and the Portuguese together and restored security and stability to the country, especially after taking over Ahmed Al-Mansour al-Hakam after the death of his brother Abdulmalik al-Saadi, who laid down the rules of the new Government in order to achieve security, stability and bliss after the period when the country was disturbed and then became the city of Marrakech the capital of ambassadors from Islamic and foreign countries and on the cultural level In literary times, the era of the Saadi reign is one of the most brilliant times of science, literature and thought.

مدخل

كان عصر أحمد المنصور الذهبي عصراً قائماً بذاته فقد كان زاخر بالكثير من صور النظم المستخدمة ووسائل التطور التي شملت جميع وجوه الحياة وفي هذا البحث نهدف إلى التعريف بجهود هذا الأمير الذي كان يتسم بسعة الأفق وشخصيته جديرة بالدراسة فهو مثال للفرد ذات الطموح. ظل متربعاً على العرش مدة ربع قرن (986هـ - 1012هـ) واصبحت الفترة التي كان قائداً للمغرب في حقبة غير مرتبطة بسياسة جيرانه. وكان مشاورٌ لكبار قادته عندما يريد الاقدام على امر مهم يخص البلاد, فضلاً عن لن مجلسه كان يضم علماء المغرب والمشرق.

محاور البحث:

في البداية مختصر عن التكوين الثقافي لأمراء الدولة السعدية ما قبل أحمد المنصور ومن ثم المحاور:

1- المحور الأول: مجلسه العلمي
2- المحور الثاني: حضوره مجالس التدريس في الجوامع في مدن المغرب العربي
3- المحور الثالث: تشجيعه على انشاء المكتبات والتأليف.
4- المحور الرابع: تشجيعه على زيادة الكراسي العلمية.
5- المحور الخامس: الاجراءات التي اتخذها في الجانب الاداري.
6- المحور السادس: استعانته بالمشورة عند اتخاذه القرارات التي تخص الدولة.

مصادر البحث

ومصادر البحث التي تعود إلى تاريخ المغرب العربي في عصر الدولة السعدية وهي الوفراني, نزهة الحادي, الناصري, الاستقصا, الفشتالي , مناهل الصفا

التكوين الثقافي لأحمد المنصور السعدي الذهبي (986هـ-1012هـ/ 1578م-1604م

نبذة مختصرة للتكوين الثقافي لامراء الدولة السعدية قبل احمد المنصور

قامت الدولة السعدية منذ بدايتها في القرن التاسع الهجري (916هـ-1019هـ) بدعوة الجهاد ضد البرتغال والاسبان لاسترجاع كافة المدن المغربية التي احتلوها[1].

وقد شبه السلاطين السعديين في متانة تكوينهم الثقافي ببعض ملوك الموحدين كعبد المؤمن الموحدي [2] والمنصور الموحدي [3] الذين مزجوا ما بين الثقافة والسياسة وبلغوا سعة من المعرفة ادهشت جلسائهم في اختلاف اختصاصاتهم.

واشتهر معظم ملوك الدولة السعدية بحبهم للأدب والميل له, وجاء انفتاح الدولة السعدية بعد قرن من الخمول الذي شهدتهُ الدولة الوطاسية وذلك بسبب اضطرار بعض العلماء والطلبة للمشاركة في الجهاد ضد الاسبان والبرتغال [4]. ومثال على ذلك العالم عبدالله الورياغلي [5] في المغرب سكن في مدرسة القصر الكبير واشتغل بالتدريس في مسجدها اثناء فصلي الشتاء والربيع وخروجه الى الجهاد في باقي فصول السنة

(1) واجه السعديون عندما وصلوا إلى الحكم مغرباً ممزقاً فقدر السعديون الموقف وعرفوا حقيقة ما يتطلبه من جهود فأخذ محمد القائم بأمر الله بتنظيم شؤون بلاد الحوز وهيأ الكتائب للإغارة على أسفي إلى ان توفي سنة (923 هـ / 1517م) فخلفه ابنه احمد الأعرج ومحمد المهدي وبعد القضاء على الوطاسيين تم توحيد المغرب سنة (961هـ/ 1554م) وعندما استلم عبد الملك حكم في سنة (983هـ/ 1576م) نظم الجيش وكان هذا قد قضى هو وأخوه احمد الذي لقب باحمد المنصور سنوات في ديار الخلافة العثمانية وشارك في معارك برية وبحرية تحت راية العثمانيين وتعرف على الجيش التركي الذي يعتبر آنذاك من أقوى وأحدث الجيوش. ينظر: حجي, محمد, الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين, منشورات دار المغرب, (الرياض – 1976), 46/1.

(2) عبد المؤمن الموحدي حكم (524هـ-558هـ / 1130م-1163م) اتسم حكمه بالتوسع في الدولة والازدهار. ابن القاضي, احمد بن محمد ابن ابي العافية المكناسي, جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس, المطبعة الحجرية بفاس, (فاس – 1891م), ص440.

(3) يعقوب ابن عبدالمؤمن الموحدي بويع له سنة (580هـ) وقد خاض معركة الارك ضد الفونسو الثامن ملك قشتالة سنة (591هـ/1159م) وكان النصر للموحدين ينظر: الفاسي, علي ابن ابي زرع, الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس, (دار المنصور للطباعة والنشر, (الرباط - 1972م), ص219.

(4) اصطبغت الاحداث في هذا العصر بطبيعة الجهاد انطلاقاً من تأسيس السعديين دولهم إلى سقوطها بسبب ظروف الاحتلال الاجنبي للثغور المغربية وكانت لظاهرة الجهاد انعكاسات واضحة في كل الميادين العلمية والفكرية. ينظر: كريم, عبدالكريم. المغرب في عهد الدولة السعدية (الرباط – 1977), ص35.

(5) الورياغلي, فقيه وقاضي اشتهر بعلمه وقام بتدريس الفقه باكثر من مدينة بالمغرب, توفي سنة (894هـ/ 1489م). ينظر, ابن القاضي, جذوة الاقتباس, ص440.

[1] فضلاً عن ذلك شارك العالم أبو المحاسن يوسف بن الفاسي في معركة وادي المخازن سنة (968هـ-1578م) [2].

وتمتع حكام هذه الدولة منذ بدايتهم بفكر ثاقب وثقافة متميزة فقد كان محمد الشيخ حكم (951- 956هـ / 1544-1549م) ممتع المجالسة, والمذاكرة, عظيم الهيبة, حافظاً للقرآن, وصحيح البخاري. ويحضر مجالس العلماء مع اولاده [3] ليستزيد من علمهم. حتى إن المراكشي وصفه بانه ((غُنيّ بالعلم منذ صغره وتعلق باهدابه وأخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ درجة من الرسوخ حتى كان يخالف القضاة في الاحكام ويرد على فتاويهم فيجدون الصواب معه وقد وقع ذلك منه مراراً))[4]. وكان يحث على المشاورة لاسيما في حق الملك[5]. فضلاً عن ثقافته الدينية فقد ألف كتاب فيه حواشي على بعض التفاسير التفاسير القرآنية [6], وأما حفيده محمد عبدالله المتوكل حكم (981 - 983هـ) فقد كان فقيه وشاعر توجه في إحدى المرات الى مدينة فاس مع القاضي عبدالواحد الحميدي [7] وأبي العباس احمد المنجور[8] وعندما اطلت ابواب المدينة انشدها إرتجالاً بابيات من الشعر [9]. وتميز ابو مروان عبدالملك باجادة لغات عديدة منها الايطالية والاسبانية والتركية فضلاً عن العربية [10].

(1) حجي, الحركة الفكرية في عهد السعديين, ص30.

(2) ابو المحاسن يوسف الفاسي, احد اعلام شيوخ عصره ولد سنة (937هـ/1530م) اسس بفاس الزاوية الفاسية , توفي سنة (1013هـ/ 1604م), مخلوف, محمد بن محمد, شجرة النور الزكية في طبقات المالكية, دار الكتاب العربي, (بيروت – 1349م), ص229, ترجمة 1136.

(3) الوفراني, محمد الصغير بن عبدالله المراكشي, نزهة الحادي في اخبار ملوك القرن الحادي, تصحيح: هوداس, مكتبة الطالب (الرباط – 1988), ص38.

(4) الاعلام, 169/4.

(5) الوفراني, ص24.

(6) الناصري, ابو العباس احمد بن خالد, الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى , تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري, دار الكتاب (الدار البيضاء – 1954م), 528/5.

(7) عبدالواحد بن احمد الحسني السجلماسي, قاضي الجماعة بفاس تولى عدة مناصب في الدولة السعدية منها الفتوى, شارك بالتدريس في جامع الاشراف توفي سنة (1003هـ/1594), ينظر: بروفنسال, ليفي , مؤرخو الشرفاء, دار المغرب للتأليف والنشر (الرباط – 1977م), ص228.

(8) احمد علي المنجور, احد علماء عصره قام بالتدريس في جامع القرويين وجامع المنصور بمراكش, له مؤلفات في الفقه والاصول واللغة, له مكانة عند احمد المنصور توفي سنة (995هـ/ 1198م) ينظر, الناصري, الاستقصا 31/5.

(9) الناصري, الاستقصا, 55/5.

(10) الناصري, الاستقصا, 56/5.

أما ابو العباس احمد المنصور [1] حكم (986هـ-1012هـ/1578م-1603م) فقد كان واسطة واسطة العقد في ملوك هذه الدولة, وكانت سياسته تهدف الى استعادة مجد المغرب وتطهير شواطئه من دنس الاحتلال الاجنبي بل أنه سعى جاهداً من أجل اعادة ارض الأندلس[2].

فضلاً عن ذلك تميز احمد المنصور بمستوى عالٍ من الثقافة وكثرة معلوماتهِ في مجالات عديدة كالأدب والتاريخ والمنطق والبلاغة والفقه والحديث والتراجم والفلك, [3] ورأينا من واجب الباحث التاريخي التاريخي اظهار التكوين الثقافي لهذا الأمير الذي أثر على مسيرة الدولة عن طريق محاور عديدة.

المحور الأول

مجلسه العلمي

كان احمد المنصور يجمع بين الحين والآخر مجلساً تجري فيه المناقشات العلمية والمناظرات لأغلب علماء ذلك العصر [4]. ومهم المفتي عبدالواحد بن احمد الحسني [5] وابو فارس عبدالعزيز ابن محمد الفشتالي [6] وقد هيأت الظروف لجعل مراكش مركزاً لمجلسه فهي بطبيعة الحال عاصمة ومركز اجتذاب لعناصر السكان المختلفة والعلماء, [7] واغنت الحياة الفكرية للمجتمع السعدي بنواحيه كافة مثال على ذلك العالم احمد بابا التنبكتي السوداني الذي ألف في هذه المدينة معظم كتبه [8].

(1) سادس ملوك السعديين ولد سنة (956هـ-1549م) ينظر: القادري, محمد بن الطيب نشر المثاني لاهل القرن الحادي والثاني عشر, تحقيق: محمد حجي, مطبوعات المغرب, (الرباط – 1977م) 3/1.

(2) كنون, عبدالله, النبوغ المغربي في الأدب العربي, دار الكتاب اللبناني, (بيروت – 1961م), 248/1.

(3) يقول عنه المنجور وهو احد الشيوخ الذي تتلمذ عليهم بانه خليفة العلماء وعالم الخلفاء, ينظر: المنجور, احمد بن علي المكناسي, الفهرست, تحقيق تحقيق محمد حجي, (الرباط – 1976م), ص6.

(4) ابن القاضي, درة الحجال في اسماء الرجال, تحقيق: محمد حجي, مطبعة الحضارة العربية, (القاهرة – 1970م), 106/1.

(5) عبدالواحد الحسني السجلماسي, احد العلماء الذين تولوا المناصب في أيام أحمد المنصور منها الفتوى والتدريس في جامع الأشراف توفي سنة (1003هـ/ 1595م), ينظر: المراكشي, الأعلام 206/4.

(6) ابو فارس, عبدالعزيز محمد الفشتالي ولد سنة (952هـ/1545م) الكاتب, المؤرخ, الأديب أحد العلماء الذين تولوا مناصب في أيام أحمد المنصور, المنصور, درس على مجموعة من العلماء وحمل لقب وزير القلم الاعلى توفي سنة (1031هـ/ 1621م), له مؤلفات منها مناهل الصفا, ينظر: القادري, محمد بن الطيب, التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في اخبار وأعيان المائة الحادية عشر والثانية عشر, تحقيق: هاشم العلوي , دار الافاق الجديدة (بيروت – 1983م), ص79.

(7) الوفراني, نزهة الحادي, ص107.

(8) ولد بتومبوكتو سنة (963هـ-1055م) كان من ابرز الشخصيات الفكرية بالسودان, شملت دراسته كل الفنون المتعارفة في عصره اتهم بالتحريض

لم يكن مجلسه مقتصراً على علماء المغرب بل حضره علماء المشرق أيضاً, اذ يذكر انه اجتمع في مجلسه إمام الدين الخليلي الوافد من بيت المقدس وابي الفضل المعروف بأبن العقاد المكي والشريف المدني [1] فقال امام الدين يا أمير المؤمنين ان المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال شد اهلها اليك الرحال, هذا مكي وهذا مدني وانا مقدسِ .... وأنشدا

إن أمـــــــير المـــــــؤمنين احمـــــــدا بحـــر النـــدى وفضـــلهُ لايجحـــدا

فطيـــــــب مكـــــــة واهلهـــــــا والمسـجد الأقصـى بـذلك يشـهدا [2]

فضلاً عن ذلك عرف المنصور انه مهتم بمشاكل الامة والاستماع لمظالم العامة, فقد نوقشت بمحضر المنصور مسائل فقهية ووفق فيها وان جرى العمل بعد ذلك في الفتاوي والاحكام.

المحور الثاني

حضوره مجالس التدريس في الجوامع في مدن المغرب العربي

لم يكتفِ احمد المنصور بحضور مجالس العلم بل كان يستشيرهم ويأخذ اراء الكثير من العلماء والشخصيات البارزة في الدولة في المسائل التي تخص امور الدولة لاسيما فيما يتعلق باموره الدينية والفكرية, مثال ذلك ابو فارس عبدالعزيز الفشتالي احد الذين اعتمد عليهم احمد المنصور حتى انه جعله وزيره الاعلى فضلاً عن كونه شاعر البلاط الرسمي[3], ولم تقتصر عناية المنصور على مدينة مراكش فقط بل كانت مدينة فاس محل اهتمامه كونها من المدن المغربية المشهورة ومركزاً للعلوم الدينية والفكرية[4], فقد ادت دوراً مهماً في الحياة الثقافية ايام الحكم السعدي حيث استوطنها الكثير من الشخصيات الاندلسية المتميزة

ضد السلطة عندما دخل الجيش السعدي إلى تومبوكوتو فالقي القبض عليه واخذ إلى مراكش, وبقي منفياً إلى سنة 1012هـ, لقي تقدير كبير لدى الاوساط الطبقية وقام بإلقاء الدروس في مراكش في الحديث والفقه المالكي, من تاليفه نيل الابتهاج وتطريز الديباج, توفي سنة (1036هـ/1627م). ينظر: مخلوف: شجرة النور الزكية, ص229.

(1) المحبي, ابو عبدالله محمد, خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر, (مصر – 1964م), 222/1

(2) المقري, شمس الدين احمد بن محمد التلمساني, نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان بن الخطيب, تحقيق: يوسف بن الشيخ محمد البقاعي, دار الفكر, (بيروت – 1986م) 310/9.

(3) بروفنسال, مؤرخو الشرفاء, ص80.

(4) تركزت في العهد السعدي عناية الدولة بالحركة التعليمية والثقافية بصورة خاصة في مراكش وتارودنت وفاس., في حين قام السكان بسد الفراغ في حل المراكز الأخرى, حيث قام العلماء والفقهاء بنشر التعليم عن طريقي انشاء المدارس والزوايا والمساجد والكتاتيب ليسدون حاجة الشعب للتعليم ينظر: كريم, المغرب في عهد الدولة السعدية, ص316.

بطابعها الثقافي والفكري العالي [1], وساعدها في ذلك ما كان موجود فيها من كتاتيب ومدارس فضلاً عن جامع القرويين الذي كان مزار لكل اصحاب العلوم والمعرفة سواء في المشرق او المغرب وقد كمل هذا الجامع ما كانت تقدمه المدارس والمساجد من علوم مختلفة فضلاً عن الاهمية التي امتاز بها كان المنصور يحضر مجالس الدراسة فيه حينما يزور مدينة فاس ومن ثم يكرم القائمين عليها [2]. ((ولما قدم مولانا احمد رحمه الله من مراكش عام الثلجة أي عام الموافق 997هـ/ 1589م قدم معه جماعة من طلبة مراكش ... وكان يحضر المجلس المذكور مع فقهاء اهل فاس)) [3].

المحور الثالث

تشجيعه على انشاء المكتبات والتأليف

فضلاً عن ذلك أولى احمد المنصور عناية كبيرة لاقتناء الكتب والنفائس منها وجمعها من كل جهة فيذكر انه ((جمع من غريب الدفاتر ما لم تكن لمن قبله ولا بها لمن بعدهُ))[4] وقد أوعز ببناء خزانة جديدة بجامع القرويين الى جنب الخزانة القديمة التي كانت موجودة اصلاً في الجامع. وزودها بالكتب النادرة التي لا يوجد لها مثيل في مكتبات اخرى إذ احتوت على أنفس الكتب في العلوم المختلفة [5].

وكان له الفضل بتزويد مختلف مساجد البلاد بالمصاحف الكريمة وعلى الرغم من قراءة الحزب من القرآن عرفته المغرب من قبل العصر السعدي [6].

وكان لاهتمام احمد المنصور بجمع الكتب قد جعل خزانته الخاصة بحق خير شاهد على ازدهار حركة العلوم في هذا العصر لاشتمالها على عدد كبير من تصانيف اهل العصر في الطب والهندسة الى جنب العلوم الأخرى واغتنت خزانته بكتب شخصيات فكرية لامعة من المشرق فكان منهم المصريون والاتراك واحتوت مكتبة احمد المنصور على العديد من الكتب المهداة له من قبل افراد وملوك عصره. فقد اهداه امير مكة ديوان شعر احتوى فيه مديح لاحمد المنصور [7].

(1) الوفراني, نزهة الحادي, ص130.

(2) كريم, المغرب في عهد الدولة السعدية, ص316.

(3) الفشتالي, ابو فارس بن عبدالعزيز, مناهل الصفا في مآثر موالين الشرفاء, وزارة الاوقاف والشؤون الدينية (الرباط – 1972م), ص200.

(4) الوفراني, نزهة الحادي, ص136.

(5) الوفراني, نزهة الحادي, ص170.

(6) الناصري, الاستقصا, 91/5.

(7) الفشتالي, مناهل الصفا, ص304.

كما احتوت مكتبته كتب نسخها نساخون محترفون من مختلف المراكز الثقافية المغربية في عصره الى جنب نساخين من عواصم المشرق العربي ايضاً, اذ كان رجال البلاط السعدي يرحلون بصناديق مملوءة بالذهب – الذي اشتهر المغرب بتجارته – الى أرجاء مختلفة في المشرق والمغرب لتعود بصناديق مملوءة بالكتب المختلفة [1]. فضلاً عن ذلك كان من مظاهر اهتمامه نشر العلم والمعرفة بشكل واسع بتكليف عدد من المثقفين والعلماء بتأليف كتب لخزانته ولوضعها تحت تصرف الاساتذة والطلاب ((شحذ أمير المؤمنين أيده الله الهمم ... فتنافس الناس ونبغ التاليف في ايامه السعيدة)) [2].

المحور الرابع

تشجيعه على زيادة الكراسي العلمية

شجع المنصور زيادة الكراسي العلمية الموجودة في جامع القرويين والتي تمثل مكانة كبيرة في تشجيع المعرفة منذ تأسيسها. فقد بدأت في العصر المريني في المغرب لكن تضاعف عددها في هذا العصر ومن الكراسي التي تم زيادتها كرسي لشرح (فتح الباري) للبخاري وكان موقعها في الباب الثاني عشر في جامع القرويين [3]. وكانت لهذه الكراسي قيمة علمية في نشر العلم فضلاً عن انها كانت قد ضمنت المورد المعاشي لأصحابها, فكانت المورد الوحيد لقسم من علماء هذا العصر كالعالم احمد المنجور الذي لم يتولَ منصباً قط في القضاء والفتيا او الخطابة بل ظل يدرس حتى الشهور الاخيرة من حياته, فدرس علم الكلام والتفسير وصحيح مسلم في جامع القرويين ولم تكن ايرادات هذه الكراسي موحدة لكل العلماء [4].

وتقديراً من السعديين للعلماء منحوا هذه الطبقة هبات ملكية ينالونها من الحكام السعديين في مناسبات مختلفة. وكانت اعطيات السعديين تفوق ما سبقهم في ايام الوطاسين فقد قال احمد المنجور: ((ما عهدنا بذل المئات في الصلات الا في ايام الشرفاء ولا عهدنا بذل الالوف الا في ايام امير المؤمنين المنصور ايده الله)) [5]. ولم تكن هذه الهبات موقوفة ولا محدودة بل كان العلماء ينالونها في مناسبات مختلفة

(1) الوفراني, نزهة الحادي, ص172.

(2) الفشتالي, مناهل الصفا, ص138, ومن المؤلفات التي الفت كاهداء او طلب منه, مناهل الصفا, جذوة الاقتباس, لابن القاضي.

(3) المقري, نفح الطيب, 60/9.

(4) حركات, إبراهيم, ظروف عيش الاساتذة والطلبة في عهد السعديين, مجلة كلية الاداب والعلوم, دار النشر المغربية, العدد الاول, سنة 1977, ص25.

(5) الفشتالي, مناهل الصفا, ص155.

مختلفة وحسب اقدارهم وما يجود به السلطان وكامثلة على الصلات احمد المنصور انه اعطى للفقيه احمد الزموري ذات سنة وكان ممن يؤم به في صلاة التراويح نحو خمسة الالف اوقية من الذهب وجناناً وارضاً بمراكش [1]. واعطى للأديب محمد بن عمر الشاري, وكان قد صاحب اخاه عبدالملك في غربته عند أتراك الجزائر, خراج قبيلته باستثناء اعشار الزيت, فلما حان وقت قطاف الزيتون وقدر اعشار الزيت كتب الشاري ابياتاً الى المنصور يطلب منه ان يترك له زيت ذلك الموسم فتنازل له المنصور عنه مدى الحياة [2].

وفي هذا العصر استجدت قضايا استدعت اراء الفقهاء للافتاء بها كقضايا الاسرى والجهاد وصرف السكة وتناول التبغ, فكان لابد من تدوين تلك الاراء في كتب فقهية لتكون مرجع اساسي يعود اليه الناس, وقد شجع احمد المنصور هذا الامر لاسيما بعد مشاركة كبار العلماء والفقهاء في المناقشات الذين افتوا بهذه المسائل [3], فضلاً عن ذلك مكنته سعة ثقافته من القيام بتأليف عديدة كتب منها:

1- المعارف في كل ما يحتاج اليه الخلائف) الذي بين فيه سياسته في تدبير أمور الدولة ولا سيما ان بلاده كانت تتعرض لهجمات الغزاة الاوربيين من الاسبان والبرتغال[4] لذلك تطرق احمد المنصور الى الطرق التقنية والعلمية لصناعة الاسلحة وبناء التحصينات والتخطيط العسكري لمواجهة اعداء البلاد ويصف المقري كتاب احمد المنصور ((بانه لا نظير له)) [5] كما اشار الفشتالي الى ذلك نظراً لسعة معلوماته وغزارتها.

2- مجموع اذكار سماه العود يضم اوراداً صوفية وقد رتبه على ثمانية ابواب ويذكر المقري انه رأى هذا المجموع فعبر عن اعجابه بجمال مضمونه وخطه وينتهي هذا المجموع بتقريظ لابي الفارس الفشتالي مؤرخ لسنة (1009هـ-1600م) أي بثلاث سنوات قبل وفاة المنصور واستعرض في هذا الكتاب اذكار خاصة بالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ومأخوذة هذه الادعية من كتب الحديث الصحاح [6].

(1) القادري, نشر المثاني, 1001/1.

(2) الوفراني, نزهة الحادي, ص113.

(3) حركات, ابراهيم, المغرب عبر التاريخ, تقديم: محمد الفاسي, (الدار البيضاء- 1965), ص42.

(4) الجزنائي, ابي حسن علي, جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس, تحقيق: عبدالوهاب بن منصور, المطبعة الملكية, (الرباط - 1967), ص56 .

(5) المقري, نفح الطيب, 302/9.

(6) المقري, نفح الطيب, 9/ 304.

وانتشرت موشحات في عصره في بلاد المشرق والمغرب واصبح كثير من الشعراء ينظمونها في اغراض مختلفة بل اصبح قسم منهم يتبارون ويظهرون براعة نظمها وخاصة في الوصف والغزل وفي روضة الاس ونفح الطيب كثير من هذه النماذج [1].

وقد نظم احمد المنصور بعضاً منها قال فيها:

ريـــــان مـــــن مـــــاء الصـــــبا أهيـــــف ممتلـــــي الـــــبرد

كالغصـــــن هزتـــــه الصـــــبا فـــــوق الـــــربى للســـــحاب

وفي موشح آخر يقول

قلـــــــــت ان ســـــــــبا بحســـــــــنه لـــــــــبي

مـــــن عينيـــــه ســـــل ظـــــبي وغمـــــــدها قلـــــــبي [2]

المحور الخامس

الاجراءات التي اتخذها في الجانب الإداري

فضلاً عن اهتمامه بالجانب الثقافي كانت له لمسات ثقافية واضحة في الجانب الاداري لدولته في عصره, سجلها المؤرخون اتسمت بطابع اعطى للدولة صفة الامبراطورية, فقد خصص أيام سماها ايام الديوان, وهي التي يجلس فيها مع الناس والوفود وادارة امور المملكة, وخص بذلك يوم السبت ويوم الاثنين ويوم الاربعاء, ومن ضمن الادارة نرى ان تميز في كتابه الرسائل الرسمية كانت تتم بصورة خاصة في عصره فكان لا يستعمل الاّ اللغة العربية في مراسلاته [3], ومن شدة التزامه بذلك فقد أوجد اشكالاً في الخط على عدد حروف المعجم, وكان يكتب بها فيما يريد كي لا يطلع عليه احد, ويمزج فيها الخط المتعارف عليه به فيصير الكتاب مغلقاً فاذا وقع في يد عدو او غيره لا يدري ما فيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه

(1) الجزنائي, جني زهرة الآس, ص57.

(2) المقري, نفح الطيب, 72/7.

واحتوت كثير من المصادر على مجموعات شعرية للمنصور منها مناهل الصفا, نفح الطيب وفي نزهة الحادي في اخبار ملوك القرن الحادي للوفراني.

(3) الفشتالي, مناهل الصفا, ص205.

[1], فضلاً عن هذا جعل طريقة المراسلة بينه وبين الملوك المعاصرين تجري على وفق قواعد خاصة وطرق معينة متفق عليها وكان يختم الكتاب الصادر في مجلسه بطابع خاص, ومن جملة اهتماماته بالادارة انه اعتنى بالسفراء الاجانب لتسير مهامهم [2], وكان اختياره للسفراء من يتمتعون بخبرة وتجربة عالية كونهم يمثلون احمد المنصور في العلاقات الدبلوماسية لدى البلد الذي يتعين فيه [3], وقد ادى ذلك الى نجاح احمد المنصور في علاقاته الدبلوماسية وتمكنه من تحقيق مكاسب سياسية كبيرة جعلت له مكانة متميزة بين معاصريه. فمكث في هذا سبعة وعشرين عاماً ونصفاً وخرج فيها بعجائب وغرائب من الذكاء ومعرفة بجميع الاشياء, حتى وصف بانه ((ما هم بشيء قط الا جاء على وفق ما اراد بل فوق ما نوى))[4]. ومن ضمن مستحدثات المنصور في الجانب الاداري هو الزام الذين يعينهم بأمر البيعة باداء اليمين على المصحف الكريم [5].

ومن ثقافته العالية أنه استخدم في الجيش عناصر كانوا مزيجاً من المغاربة والاندلسيين والعبيد[6]. ثم السودانيين الى ان تمكن في النهاية من تكوين جيش نظامي حديث متكون من فرق متعددة موحدة الزي, مسلحة باحدث الاسلحة جعلت نظام جيشه في المغرب, لقرون عديدة [7].

ومن المعلوم ان اهل الذمة ومنهم اليهود كانوا جزء من سكان المغرب في فترة السعديين حيث كانوا متواجدين من اقصى الشمال الى تخوم الصحراء, واستوطنوا المراكز التجارية التي تمر بها او تنتهي اليها قوافل الذهب الرابطة بين شمال افريقيا والسودان فضلاً عن ذلك اشتغلوا بالتجارة وصياغة الحلي وضرب النقود, وكانوا على اتصال بكبار التجار وهذا أدى الى استعانة الدولة بهم في ادارة مرافق الدولة, مثل معامل السكر وكانوا لهم دور في المجتمع المغربي بعد ان هاجر هؤلاء من الأندلس نتيجة الاضطهاد الذي لاقوه

(1) الناصري, الاستقصا, 188/5.

(2) كريم, المغرب في عهد الدولة السعدية, ص249.

(3) السعدي, عبدالرحمن بن عبدالله السوداني, تاريخ السودان, المطبعة الامريكية, (باريس – 1964), ص294.

(4) السعدي, تاريخ السودان, ص208.

(5) كريم, المغرب في عهد الدولة السعدية, ص292.

(6) شارل, اندريه, تاريخ افريقيا, 272/205.

(7) حركات, المغرب عبر التاريخ, 35/1.

على ايدي ملوك الاسبان, فبنى لهم احمد المنصور أحياء خاصة سميت الملاح وتميزوا هؤلاء بمعرفتهم اللغات فضلاً عن امتهانهم التجارة وقد ادرك المنصور اهمية هذه الطبقة في استقرار الاوضاع الاقتصادية للبلد [1].

بالاضافة الى ذلك عهد المنصور الى التعبير عن الرفاه والبذخ واعطاء طابع الرقي والتقدم عن المرتبة التي وصلت اليها الدولة, في عصره في بناء عدد من المعالم ظلت شامخة على مر العصور وكان منها قصر البديع الذي شرع في بنائه بعد خمسة شهور من واقعة وادي المخازن وهو اجمل ذكر مما صنعه بنو العباس ببغداد وبنو مروان بالشام وبنو عبيد بالقاهرة وما يعزى للقياصرة والاكاسرة. على حد قول الفشتالي [2].

وكانت غاية احمد المنصور من بناء هذا القصر ليكون شاهد على تقدم الدولة السعدية. كما كان للمرابطين والموحدين في بناء المساجد في مراكش شواهد, وكان هناك للسعديين ابنية شاهدة على عصرهم أيضاً, فاراد احمد المنصور في هذا القصر ان يظل ذكره فانفق فيه من الاموال والنفائس وكان يحسن الى العمال الذين عملوا في بناء هذا القصر غاية الاحسان ويوسع لهم ولأولادهم العطاء [3].

وبالرغم من مشاغل احمد المنصور كان لا يغفل عن تعظيم المناسبات الدينية ويحتفل بها غاية الاحتفال ويقوم باخراج الصدقات ويجري بها على ايدي الثقات من رجاله والاجور ويعم بها من ذوي الحاجات [4]

المحور السادس

استعانته بالمشورة عند اتخاذه القرارات التي تخص الدولة

ومن الصفات التي امتاز بها احمد المنصور اتباع المشورة في الكثير من قراراته لاسيما مشاورة كبار قادته عندما يريد الاقدام على امر مهم يخص البلاد, فعندما اراد التوجه نحو السودان استشار اهل الرأي والمشورة بهذا الأمر, وعلى الرغم من عدم تشجيعهم له, إذ بينوا له ان دولة المرابطين مع ضخامتها ودولة الموحدين على عظمتها, ودولة المرينين على قوتها لم تطمح همة احد منهم لشيء في ذلك. لصعوبة مسالكها, فلما انتهوا من كلامهم خطب فيهم احمد المنصور وبين رأيه وذكر لهم جملة من الاسباب تجعله

(1) كريم, المغرب في عهد الدولة السعدية, ص292.

(2) مناهل الصفا, 3/8.

(3) الناصري, الاستقصا, 154/5.

(4) الفشتالي, مناهل الصفا, 252.

يقوم بغزو السودان فاستطاع اقناعهم في نهاية الامر وقالوا صدق من قال (عقول الملوك ملوك العقول) [1].

فاستردوا السعديين صحراء تيكوارين وأخضع الامارات السودانية في حوض السنغال وانتهت حملته بالاستيلاء على مالي وغانا سنة (999هـ/1591م).

وسجل للمنصور موقف آخر اعتمد فيه على المشورة في اتخاذ القرار حينما اعطي البيعة لابنه (ابي عبدالله محمد المأمون) فالدولة السعدية على الرغم من انها قامت على اساس نظام ملكي وراثي لكنها منذ عصر القائم بامر الله – المؤسس الحقيقي للدولة السعدية – اعتمد على ان يكون الحكم لأكبر الاولاد بعد وفاة الملك, ومع ذلك عندما مرض احمد المنصور, طلب اعيان الدولة منه بعد ان اتفقت كلمتهم على تعيين من يلي امره للدولة من بعده ويكون ولي عهده وعرضوا الامر عليه استحسن الامر في العادة وطلب منهم ان يستخيروا له في ذلك, ثم جمع اعيان مراكش وفاس وشيوخ القبائل واوصى العهد لولده ابي عبدالله محمد المأمون ولم يحضر ابنه البيعة فبعث المنصور له بعد ذلك بالبيعة [2].

فضلاً عن ذلك نرى اهتمام احمد المنصور بالعلم والعلوم العقلية فقد نالت اهتمامه وحسبنا ما اسداه المنصور لطبيبه الخاص أبي عبدالله محمد الطيب لما شفى من مرضه وتداركه الله على يد الطبيب المذكور عام (987هـ/ 1582م) [3].

ومن المعلوم ان امراء السعديين كان لهم المام بالطب يتجلى ذلك في كتاب احمد المنصور الذي بعثه الى ولده بمراكش عند ظهور الوباء فيها ((اول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم اذ لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو اقل القليل حتى بشخص واحد, ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق اسعدكم الله, فالزموه واذا استشعرتم بسلامة وبحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من المعروف منه ... ولا تهملوا استعماله ولا تدخل داراً بل تعطي لكاتبكم هو الذي يتولى قراءتها.)) [4]

واوعز الى بعض الاطباء ترجمة كتب خاصة بالطب فقد الف ابن عزوز المراكشي كتاب (وصف الطب) للإفادة من المعلومات الواردة فيه, وكان في خضم مشاغله لم ينسَ الاطلاع على المخترعات العلمية بأوروبا الغربية والاستفادة منها وهذا ما اكده التاجر الانجليزي بالمغرب Tomas إلى العالم الرياضي

(1) الوفراني, نزهة الحادي, ص93.

(2) السعدي, تاريخ السودان, ص106.

(3) كنون, النبوغ المغربي, 1/ 252

(4) كنون, النبوغ المغربي, 252/1.

المخترع ادوارد رايت بعرض اخر مخترعاته على السفير المغربي في انكلترة للإفادة منها لاهتمام احمد المنصور باختراعات الآلات الفلكية والادوات المتعلقة بها وذلك لاستخدامها في الرحلات التي يقوم بها إلى الصحراء وبلاد السودان وخاصة الأبر المغناطيسية من اجل التعرف على الجهات الأربعة[1].

(1) كريم, المغرب في عهد الدولة السعدية, 320.